مقدمة المؤلِّف للترجمة العربية

حتى عهد قريب كان بائعو الكتب في دمشق، المدينة التاريخية التي احتضنت ابن تيمية، يواجهون صعوبات في عرض كتبه أو بيعها علانية، أو حتى الكتب التي كُتِبَت عنه. إذ يُعَد ابن تيمية شخصية استقطابية؛ لدرجة أن اسمه تحوّل إلى كلمة شحن عاطفي في بعض الدوائر، يثير الإجلال لدى أتباعه بينما يُغضب خصومه. لكن هذا الجدل لا يعكس بالضرورة فهمًا أعمق لشخصه أو فكره، وتتجلى هذه المفارقة في قصة طريفة رواها صاحب إحدى دور النشر السورية، حيث ذكر أن أحدهم أبدى فضولًا غريبًا، معبرًا عن رغبته في «مساءلة» ابن تيمية نفسه[1]! قصةٌ تظهر كيف يتحول التاريخ أحيانًا إلى مساحة من سوء الفهم والغرابة!

في محاولة لتسويغ رؤية هذا الأخير، قد نلاحظ أن حضور ابن تيمية في الفكر الإسلامي المعاصر والممارسات الدينية، مثل خطب الجمعة، يفوق بكثير ما قد نتوقعه من شخصية رحلت قبل نحو سبعة قرون. وهذا يُثير سؤالًا محوريًّا: ماذا يمكننا أن نستفيد اليوم من شخص عاش في سياق يختلف جذريًّا عن واقعنا؟ قبل الخوض في الإجابة، أود أن أسلط الضوء على ثلاثة طرق خاطئة لا ينبغي لنا أن نتعامل عبرها مع تراث ابن تيمية.

أولًا، يُلاحظ للأسف انتشار اتجاهين مغاليين في التعامل مع ابن تيمية: إما إسقاطه وشيطنته بصورة مطلقة أو تقديسه دون تمحيص. فالكثير من الناشطين، ليس فقط

(1) https://www.france24.com/en/live-news/20250128-books-banned-under-assad-now-on-sale-at-damascus-shops [last accessed: March 2025]

على منصات التواصل الاجتماعي، جعلوا من مهمتهم فضح ما يرونه انحرافات في فكر ابن تيمية ودحضها. تُلقى محاضرات للعامة حول مسائل معقدة مثل مسألة «خلق القرآن» فقط لإثبات مدى ابتعاد آرائه -في نظرهم- عن الإسلام الحق. وفي المقابل، لا يقل مريدوه تشددًا في تعاملهم مع تراثه. وحسبك مثلًا عندما ألقيتُ محاضرة في إحدى الجامعات العربية وانتقدت بجرأة استدلال ابن تيمية في مسألة بعينها، ففوجئت بموجة الغضب التي اجتاحت بعض الطلاب الحاضرين، وكأنني مسست قدسية لا تُمس!

ثانيًا، لابن تيمية حضور في التيارات المعاصرة، فلا تكاد توجد جماعة ذات توجهات فكرية معينة في إطار الإسلام السني اليوم إلا وتظهر نوعًا من الارتباط بتراثه. ويُعَد محمد بن عبد الوهاب (تـ: 1206هـ/1792م) ممثلًا لبعض هذه التيارات، الذي أشار كول إم. بونزل (Cole M. Bunzel) في دراسة مهمة له إلى أن أفكاره تحمل بصمات ابن تيمية بوضوح من حيث المصدر والإلهام لكنها تتجاوزه في بعض الاستنتاجات التي قد تختلف في طريقتها وتطبيقها[2].

ثالثًا وأخيرًا، إن التمسك القوي بالتراث الكلاسيكي، بما فيه فكر ابن تيمية، في الخطاب الإسلامي المعاصر، غالبًا ما يقود إلى إحياء نقاشات من ماضٍ بعيد لم تَعُد تلبي حاجات الناس اليوم. فما زلنا نرى أعمالًا معاصرة تُكتب لتفنيد آراء المعتزلة، مستخدمة حججًا يعود عمرها إلى قرون، رغم أن المعتزلة أنفسهم باتوا جزءًا من التاريخ. إذا أرادت العقيدة الإسلامية أن تبقى ذات صلة بواقع الناس، فلا بد أن تقدم إجابات معاصرة لأسئلة العصر، بدلًا من أن تظل مُرْساة في الماضي. وقد عبّر محمد الغزالي الذي كان قارئًا نهِمًا لابن تيمية عن هذه الفكرة بقصة لطيفة، وإن كانت في سياق «الفقه» وليس «العقيدة». فقد روى كيف ذهب عالم أزهري إلى قرية مصرية لتعليم الناس أداء الصلاة. وعندما شرع في شرح الوضوء، أسهب في

(2) Carlos Bunzel, Wahhābism. The History of a Militant Islamic Movement, Princeton & Oxford: Princeton University Press 2023, p. 126.

الحديث عن جواز استخدام الندى والثلج ومياه الأمطار والبحيرات والينابيع. فما كان من أحد القرويين إلا أن وقف مستغربًا وسأل: «عمّ تتحدث؟ لماذا لا نستخدم ماء الحنفية؟»[3].

إذن، ماذا يمكننا أن نستفيد من ابن تيمية؟ في تقديري، الكثير. لقد كان ابن تيمية شخصًا لا يقبل الأمور بسهولة، بل يميّز بوضوح بين الوحي الإلهي والتراث التفسيري البشري. فكَّر بعمق ونقد مسائل كثيرة كانت تُعَد من المُسلَّمات في عصره. وحسبك تناوله لمسائل مثل فناء النار، وجدوى التقسيم اللغوي بين الحقيقة والمجاز، وما إذا كان الطلاق الثلاث في جلسة واحدة يُحسب ثلاث طلقات منفصلة. وفي كل هذه المسائل، توصَّل إلى آراء خالفت ما كان سائدًا في عصره. وهذا لم يتطلَّب منه فقط فكرًا نقديًّا، بل أيضًا شجاعة وإصرارًا، كما تشهد على ذلك مدد سجنه المتكررة.

بل إنه كان ينخرط بصدق في دراسة أفكار خصومه، حيث كان يقرأ كتاباتهم ويستشهد بها عند محاولة تفنيدها. كان رجلًا يتعامل بجدية وإخلاص مع الآراء المخالفة لرأيه، وحتى عندما كان يجد فيها ما يستحق الإشادة، كان لا يتوانى عن الإشارة إليه. لم يكن ابن تيمية شخصًا يفتقر إلى الإنصاف أو التمييز. فقد امتلأت كتاباته بكلمات الثناء تجاه الأشاعرة الأوائل، بينما كان أكثر حدة في نقده للأشاعرة المتأخرين مثل الفخر الرازي.

من ناحية المضمون، يظل ابن تيمية شخصية تستحق الاهتمام لأسباب متعددة، وأود أن أتوقف عند السبب الأقرب إلى نفسي. فأرى في فكره نقدًا لاذعًا، وإن كان ناقصًا في جوانب كثيرة، للتأثيرات اليونانية في التراث الإسلامي. ثمة الكثير مما يمكننا

(3) Haifaa G. Khalafallah, The al-Ghazālī Enigma and why Shari'a is not Islamic law, Bristol: Equinox 2017, p. 247.

(للأسف، لم يتسن لي الوصول إلى المصدر الذي أشارت إليه هيفاء خلف الله، وهو: محمد الغزالي، «ندوة تدريس العلوم الشرعية، فضيلة الشيخ محمد الغزالي: تقديم وإدارة: د. جمال الدين عطا»، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بدون تاريخ، ص2).

استخلاصه من ابن تيمية في هذا الصدد؛ ليس عبر تكرار أفكاره بحذافيرها، بل بتفاعل خلّاق معها في ضوء المناقشات الفكرية المعاصرة، والسعي لتطويرها بنحو أعمق. ولكي يتحقق هذا، لا بد من فهم فكر ابن تيمية ضمن سياقه التاريخي والفكري. وبهذه الروح، آمل أن أقدم عبر هذا الكتاب إسهامًا متواضعًا في هذا المسار.

تختلف التحديات والمشكلات التي واجهها ابن تيمية ومعاصروه عن التي نواجهها اليوم، حتى وإن بدت بعض أوجه التشابه سطحية. كان ابن تيمية يخشى انهيار الدولة المملوكية تحت وطأة الغزو المغولي، وهو ما كان سيُحْدِث تداعيات خطيرة على تماسك المجتمع الإسلامي السني ومستقبله. لكن مخاوفه تلك لم تتحقق إلا مع دخول الحداثة الأوروبية إلى العالم الإسلامي، بل إن التطورات التالية لها تجاوزت بكثير ما كان يتخيله. فقد حلّت القوى الكولونيالية الغربية محل الأنظمة المحلية التي تشكلت تاريخيًّا في العالم الإسلامي، وفرضت نموذج الدولة القومية، مدعومة بأدواتها الفعّالة لمراقبة الشعوب والسيطرة عليها.

في ظل السياق التاريخي الكولونيالي الذي شهد تحولات كبرى، مر الخطاب الإسلامي بمراحل من التطور والتحديات، أفرزت تيارات فكرية متنوعة، بعضها اتسم بالتشدد. وقد أسهمت عوامل متعددة في تشكيل هذه التحولات، منها العوامل السياسية والاجتماعية التي أثّرت في بعض المجتمعات الإسلامية. وفي الوقت نفسه شهد العالم الإسلامي تحولات عميقة منذ ظهور الحداثة، مما يفرض على الفكر الإسلامي مهمة إعادة النظر في أساليبه وطرح حلول تتلاءم مع متطلبات العصر، مع الحفاظ على هويته وقيمه.

تحرير الفكر الإسلامي من الإرث الكولونيالي هو شرطٌ لا غنى عنه لتخطي هذه التحديات. وهذا يستلزم قراءة نقدية تأملية للتراث، مع إدراك دائم لكيفية تشكُّل رؤانا الحديثة بفعل تأثيرات الحداثة. وبهذه الروح، سعيتُ إلى مقاربة مفكر بحجم ابن تيمية، عسى أن أكون قد أسهمت في إثراء النقاش حول إرثه الفكري، بما يفتح آفاقًا أكثر إنتاجية وبناء.

****

يجدر هنا تقديم ملاحظة رسمية: اكتمل الجزء الرئيس من هذا العمل في يوليو من عام: (2017م). وعند نشره باللغة الألمانية عام: (2019م)، ثم ترجمته إلى الإنجليزية عام: (2024م)، لم يخضع إلا لتعديلات محدودة. وبناء على ذلك، لم تعتمد معظم الدراسات التي صدرت بعد عام: (2017م) في إطار هذا العمل.

في الختام، أعبر عن خالص امتناني لكل من أسهم في إخراج هذه الترجمة إلى النور. بادئ ذي بدء، أتوجه بالشكر الجزيل إلى فريق الترجمة المكوَّن من: «**محمد مجدي**» و«**محمد عطون**» الذين أبدعوا في نقل هذا النص المعقد إلى لغة عربية سلسة وحيوية. كما أتوجه بالشكر إلى المشرف على الترجمة «**عبد الله الغِزِّي**» على إشرافه القيِّم وتوجيهاته التي أسهمت في إثراء العمل. وما قدَّمه هذا الفريق من تعليقات توضيحية غنية وتصويبات دقيقة للأخطاء في النص الإنجليزي يُجسِّد الجهد الكبير والتفاني الذي بذلوه في هذا المشروع، لهم مني كل التقدير والاحترام. كما أتقدم بجزيل الشكر إلى «**مركز نماء للبحوث والدراسات**»، الذي كان له فضل تمويل هذه الترجمة، مما جعلها ممكنة.

وأخيرًا، أعبر عن امتناني لزوجتي روزان، المتحدثة بالعربية بطلاقة، التي راجعت الجزء الأول من الترجمة بدقة متناهية حتى موعد ولادة طفلنا الثاني. هذا الكتاب أهديه إليها وإلى فلذتي كبدي: كاميليا وفارس.

جرايفسفالد (ألمانيا)، رمضان 1446هـ/مارس 2025م

فريد سليمان